

الكلام النفسي

فِي كُتَيْبَاتِ أَبِي الْبَقَاءِ الْكَفَوِيِّ

(ت: ١٠٩٤ هـ - ١٦٨٣ م)

(الكَلَامُ النَّفْسِيُّ، الكَلَامُ الْحِسِّيُّ، اضْطِرَابُ الْمَفَاهِيمِ)

بَحْثٌ أَعَدَّهُ:

أ.م.د عبد الباقي بدر ناصر الخزرجي،

و

م.م مهند عبد الهادي صجم السعدون

قِسْمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - كَلِيَّةُ الْآدَابِ - الْجَامِعَةُ الْمُسْتَنْصِرِيَّةُ

Abdalbakibader@yahoo.com.

Mohannad_alsaadon@yahoo.com.

(١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م)

The psychological speech

**In Quleiyat Abi Al baqaa Al
Qafawi**

(1094A.H, 1683A.D)

(The psychological speech, Physical speech, Concepts)

Research submitted by

Asst. Prof. Dr. Abdul-Baqi Badir Nasir AL-Khazragi

Mohannad Abdul- Hadi Sachim Habeeb Al-saadon

Arabic Language department

College of Arts in Al-Mustansirya University

Abdalbakibader@yahoo.com.

Mohannad_alsaadon@yahoo.com.

2013A.D

1433A.H

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وبعد ...

يتناول هذا البحث ما جاء في كتاب الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (ت ١٠٩٤ هـ) من إشارات وآراء مهمة تتعلق بفكرة (الكلام النفسي) التي يتبناها الكفوي، أدرجها لدى حده بعض الحدود وشرحه بعض المواد، ويتناول أيضاً الاضطراب الناجم عن بعض المفاهيم التي تمت للفكرة بصلة، بعد مناقشتها، ومنها عد الكلام النفسي خطاباً وعدم استقامة ذلك في ذهنه . ويقوم البحث على أساس محاولة فهم الفكرة ومناقشة ما انبثق عنها في فكر الكفوي اللغوي من تأرجح بين اللفظ والمعنى.

In The Name of Allah

Thank for Allah and peace be upon Mohammad and his family...

This search deals with signals and important opinions in AL-QULEYAT for Abi AL-baqaa Ayoob bin Moosah AL-kafawy (D.1094) relate with (the psychological speech)idea which were a doubted by AL-kafawy , put them within defining several things and explanting them . In addition to the confusing made of some ideas that in line with ,after it be discussed ,like depending the psychological speech is unfixed. This search is depends on the rule of the attempt of understanding idea and discussing the prepositions of AL-qafawy linguistic idea between phonetic and meaning.

المقدمة

أَكْثَرَ الْكُفَوِيِّ مِنْ ذِكْرِ (الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ)؛ إِذْ تَنَاوَلَهُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَادَّةٍ مِنْ مَوَادِّ كَلِّيَّاتِهِ مِنْهَا:

مَادَّةُ (الْخِطَابِ)^(١)، وَ (الْحُكْمِ)^(٢)، وَ (الْقُرْآنِ)^(٣)، وَ (الْكَلَامِ)^(٤)، وَ (اللُّوْحِ)^(٥)، وَ (الْمَعْنَى)^(٦)، وَ (الْوَحْيِ)^(٧)، وَغَيْرَهَا ... وَنَلْحِظُ أَنَّه لَمْ يَجْعَلْ لِهَذَا الْمَصْطَلَحِ مَكَانًا مُسْتَقِلًّا بِهِ، وَلَعَلَّنَا نَسْتَقْصِي فَنَجْمَعُ أَشْتَاتَهُ مِنْ أِبْعَاضِ الْكَلِّيَّاتِ، وَبِنَظَرَةٍ يَسِيرَةٍ فِي الْمَوَادِّ الْمَذْكُورَةِ آنْفَاءً؛ نَجِدُ أَنَّهَا لُبٌّ مَا يُعْنَى بِهِ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَالْأُصُولِيُّونَ وَمَا تَدَوَّرَ حَوْلَهُ رَحَى جَدَلِهِمُ الْمُحْتَدِّمُ؛ إِذْ إِنَّ فِكْرَةَ (الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ) تُمَثِّلُ إِحْدَى التَّخْرِيجَاتِ لِإِشْكَالِيَّةِ (خَلْقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ قَدَمِهِ) وَالْمَهْمُ فِي الْبَحْثِ تَقْدِيمُ الْفِكْرِ عَلَى وَفْقِ الرُّؤْيَا اللَّغَوِيَّةِ، وَتَبْيَانُ أَثَرِهَا فِي تَوَجُّهَاتِ الْكُفَوِيِّ، وَمُنَاقَشَتُهَا بِشَكْلِ مُحَايِدٍ؛ لِأَنَّ الْكُفَوِيَّ كَانَ أَشْعَرِيًّا وَلَمْ يَكُنْ يَخْفِي ذَلِكَ الْفِكْرَ، بَلْ يَدَافِعُ عَنْهُ وَيَتَبَنَاهُ.

المعنى النفسى

يسود الفكر الأشعري عقليّة الكفوي: إذ ينطلق من ذلك الفكر، وفي جَوْهٍ يُحَلَّقُ بآرائه ومفاهيمه، ومن ذلك مفهوم (المعنى النفسى) فهو يرى أن: (المعنى مقول بالاشتراك على معنيين: الأول: ما يُقابل اللفظ سواء كان عينًا أو عَرَضًا .

والثاني: ما يُقابل العين الذي هو قائم بالنفس، ويقال: هذا معنى، أي: ليس بعينٍ سواء كان ما يُستفاد من اللفظ أو كان لفظًا، والمراد بالكلام النفسى: هو هذا المعنى الثاني وهو القائم بالغير أعم من أن يكون لفظًا أو معنى لا مدلول اللفظ كما فهم أصحاب الأشعري (*) من كلامه: " الكلام هو المعنى النفسى " (٨).

فالمعنى النفسى الذي أرادَهُ الكفوي هو ما يكون في النفس من الكلمات؛ ولكي نوضح ذلك نُوجدُ مُقابلًا له نسميه (المعنى اللفظي) ونقصد بالمعنى اللفظي مدلول اللفظ، وهو ما توهمه - كما قال الكفوي - أصحاب الأشعري من كلامٍ صاحبه؛ فهم ظنوا أن المعنى النفسى هو المعنى اللفظي (مدلول اللفظ)؛ ولكن المعنى النفسى هو المعنى الذي يشمل اللفظ والمعنى الكامنين في النفس وهما ليسا بعينين وإنما معنيتان (ما يُقابل العين الذي هو قائم بالنفس) (٩). ولكي تتضح الصورة أكثر لابد من تبيان هذه الأمور بأضدادها كما فعل القاضي عبد النبي الأحمدي نكري (ت: ١٢هـ)؛ إذ يرى أن: (الكلام نفسى ولفظي لسانى، فالنفسى يتبين بالضد وهو (النسيان)، واللسانى إن كان للمتكلم بالفعل فيتبين بضده وهو (السكوت)، وإن كان له بالقوة فبـ (الخرس)) (١٠).

الفكرة تدور حول (المعنى النفسى)؛ لأنها تُحدد مفهوم (الكلام النفسى) فحينما وُضِعَ الكلام في النفس استوجب أن يُقدّم له بأن يوضع المعنى في النفس كذلك؛ لأنّ الكلام يصعبُ تصوّره في النفس؛ إذ محلّ الكلام اللسان وما في النفس المعنى المراد التعبير عنه بالخط أو اللفظ فإذا ما وصل المتلقّي أدركه بأجزائه (الحروف، والكلمات، والجمل)، وهو يتحوّل من رموز إلى أصوات، ومن أصوات إلى صور في الذهن، ولكلّ كلام ما يُقابلُه في الذهن، فالذي ينسى كلامه كما في المثال ينسى اللفظ والمدلول معًا وقد كانا في الذهن ولم يتحوّلا إلى حروفٍ منطوقةٍ أو مكتوبةٍ، وقد أطلق عليها كلامًا؛ فالكلام عند الكفوي (الأشعري) يُطلق على اللفظ ومدلوله

بوصفهما معنيتين مُقابلتين للعَيْنِ الذي هو قائمٌ بِنَفْسِهِ، فَهُمَا لَيْسَا عَيْنَيْنِ، بَلْ مَعْنِيَتَيْنِ لَيْسَ لِهَما ذاتٌ.

ونعودُ إلى المِثَالِ الذي نقلناه من كلامِ القاضي عبدِ النبيِّ الأَحمَدِ نكري للتوضيحِ، ونقولُ:
لا يُسمَّى ما يَنسَى الإنسانُ مِنَ الألفاظِ التي يُريدُ بها (كلامًا) إلَّا من بابِ ما ستؤولُ إليه؛ إذْ
كانتْ ستكونُ كلامًا لو تُدْكَرَتْ وتُلْفَظَ بها، لذا سُمِّيتْ كذلك وإلَّا فهي بعد نسيانِها صارتْ عَدَمًا .

والكفويُّ لم يَتَطَرَّقْ لِلنسيانِ في تَبْيَانِ مفهومِ حَقِيقَةِ الكلامِ؛ إذْ قالَ: (الكلامُ في الحَقِيقَةِ
مفهومٌ يُنافي الخرسَ والسُّكوتَ)^(١١)، ولم يَقُلْ يُنافي النسيانَ.

الكلام النَّفْسِيُّ

ذَكَرَ الكَفَوِيُّ الكَلَامَ النَّفْسِيَّ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا فِي قَوْلِهِ فِي (الْخِطَابِ): (فَالْخِطَابُ إِمَّا الْكَلَامُ اللَّفْظِيُّ أَوْ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ الْمَوْجَّهُ نَحْوَ الْغَيْرِ لِلْإِفْهَامِ)^(١٢).

وَمِنْهَا قَوْلُهُ فِي (الْحُكْمِ): (وَفِي اصْطِلَاحِ أَصْحَابِ الْأُصُولِ: خِطَابُ اللَّهِ الْمُتَعَلِّقُ بِأَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالِاِقْتِضَاءِ أَوْ التَّخْيِيرِ، وَيُقَالُ لَهُ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ وَمَدْلُولُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِجَابِ وَالتَّحْرِيمِ)^(١٣).

وَمِنْ غَرِيبٍ مَا قَالَ الْكَفَوِيُّ فِي الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ قَوْلُهُ: (وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةٌ فِي الْمَعْنَى النَّفْسِيَّةِ، وَمَجَازٌ فِي اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَيْهِ)^(١٤). يَعْنِي أَنَّ الْأَلْفَاظَ لَيْسَتْ كَلَامًا وَإِنَّمَا الْكَلَامُ مَا يَكُونُ فِي النَّفْسِ مِنْ مَعَانٍ فَإِذَا خَرَجَتْ لَمْ تَعُدْ كَلَامًا حَقِيقَةً وَإِنَّمَا تُسَمِّيُهَا بِذَلِكَ مَجَازًا! وَهُوَ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى يُعَمِّمُ هَذَا فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي كَلَامِ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ يُفَرِّقُ فَيَقُولُ: (تَقُولُ: هَذَا كَلَامُ اللَّهِ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَامٌّ، وَلَا تَقُولُ: قَرَأَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ خَاصٌّ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ)^(١٥)، وَنَرَى تَبْنِيَهُ لِلْفِكْرَةِ وَانْطِلَاقَهُ مِنْهَا فِي فَهْمِ تَقْسِيمِ الْكَلَامِ وَتَعَدُّدِهِ، أَوْ مَنَافَةِ الْخَرَسِ، أَوْ تَقْدِيمِ الْمَعْنَى عَلَى اللَّفْظِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي أَسَّسَهَا عَلَى فِكْرَةِ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ .

ثَمَّةُ قَضِيَّةٍ ذَكَرَهَا الْكَفَوِيُّ تُبَيِّنُ تَوَازُنَ فَهْمِهِ لِمَسْأَلَةِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى؛ إِلَّا أَنَّ الْأَثَرِ الْأَشْعَرِيَّ فِي فِكْرِهِ يُورِجِحُهُ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى فَيَمِيلُ نَحْوَ الْمَعْنَى؛ إِذْ يَقُولُ: (وَلَا يُسْتَشْهَدُ عَلَى الْعُلُومِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ عِلْمُ اللُّغَةِ وَالتَّصْرِيفِ وَالْعَرَبِيَّةِ إِلَّا بِكَلَامِ الْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا؛ لِأَنَّ الْمَعْتَبَرَ فِيهَا ضَبْطُ الْأَفْظَاهِمِ وَأَمَّا عِلْمُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالبَدِيعِ فَقَدْ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الْمَعَانِي، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ إِذَا كَانَ الرَّجُوعُ إِلَى الْعَقْلِ)^(١٦)، فَمَسَائِلُ الْمَعْجَمِ وَالصَّرْفِ وَالنَّحْوِ تَخَصُّ الْأَلْفَاظَ وَضَبْطُهَا لَذا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ الْعَرَبِ فَقَطْ، أَمَّا عِلْمُ الْبَلَاغَةِ فَهِيَ تَخَصُّ الْمَعْنَى؛ لِذَا فَهِيَ أَعَمُّ، وَالْكَلامُ الْمُتَقَسِّمُ -عِنْدَ الْكَفَوِيِّ- عَلَى نَفْسِيٍّ وَلِسَانِيٍّ يَتَشَاوَرُ قِسْمَاهُ النَّصِيبَ مِنْ هَذِهِ الْمَسْتَوِيَّاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَعِلْمُهَا كُلُّ بِقَدْرِ مَا لَهُ مِنْ عِلَاقَةٍ بِاللَّفْظِ أَوْ الْمَعْنَى، وَلَعَلَّ الْكَلَامَ النَّفْسِيَّ الْمَقْدَمَ لَدَى الْكَفَوِيِّ لِسَبَبٍ عَقَائِدِيٍّ؛ كَوْنِهِ حَقِيقَةً كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لَعَلَّهُ يَكُونُ أَوْسَعَ وَأَعَمُّ وَأَعْلَى رُتْبَةً فَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِالْعَقْلِ وَالدَّهْنِ، أَمَّا الْكَلَامُ اللَّسَانِيُّ اللَّفْظِيُّ فَهُوَ صُورَةٌ مَجَازِيَّةٌ لِتِلْكَ الْحَقَائِقِ الذَّهْنِيَّةِ؛ إِذِ اللَّسَانُ يُعَبِّرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ مِنْ مَعَانٍ (الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ)، فَالْكَلَامُ النَّفْسِيُّ

لدى الكفويّ معانٍ، والكلامُ الحسيُّ ما يُعبّرُ به عن تلك المعاني؛ يقول: (ومن يريد [كذا] أن يأمرَ أو ينهى أو يُخبر أو يستخبر أو يُنادي يجد في نفسه قبل التلفّظ معناها، ثمّ يُعبّرُ عنه بلفظٍ أو كتابةٍ أو إشارةٍ، وذلك المعنى هو الكلامُ النَّفسيُّ، وما يُعبّرُ به هو الكلامُ الحسيُّ)^(١٧).

ونحن نجدُ في أنفسنا آلافَ المعاني ثمّ لا نتلفّظُ بها، فهل يكونُ كلُّ ما نجدُهُ في أنفسنا كلامًا؟

ويفرّقُ الكفويّ بينَ الكلامِ النَّفسيِّ والعلمِ الحاصلِ في النفسِ الإنسانيّةِ بالأشياءِ بقوله: (وفرّقهُ من العلمِ هو أنّ ما خاطبَ به مع نفسه أو مع غيره فهو كلامٌ)^(١٨)، فالكلامُ هو ما نُخاطبُ به أنفسنا (نفسِيّ) أو غيرنا (حسيّ لسانيّ)، وما خاطبنا به غيرنا قبل أن نتلفّظَ به هل كان كلامًا؟ إنّ كل ما يطرح من أسئلةٍ وإشكالاتٍ يُمكنُ حلُّه بتركِ ذلك التقسيمِ على نفسيّ وحسيّ وجعلِ الكلامِ كلامًا، والتوقفُ عند القولِ بأنّ الكلامَ لفظٌ له معنى مفيدٌ، ونكتفي بتجزئةِ الكلامِ وذكرِ أركانه، فلا يكونُ اللفظُ كلامًا من دون معنى مفيدٍ ولا يكونُ المعنى القائمُ في النفسِ كلامًا ما لم يخرجْ إلى المخاطبين؛ لأنّ الكفويّ نفسه يقولُ: (والتحقيقُ في هذا الباب أنّ الكلامَ عبارةٌ عن فعلٍ مخصوصٍ بفعلِ الحيِّ القادر؛ لأجلِ أن يعرفَ غيره ما في ضميره من الاعتقاداتِ والإراداتِ)^(١٩)، فكيف يَعْرِفُ غيره ما في ضميره إذا كان كلامُهُ في نفسه ولم يُخرِجهُ إلى مخاطبيهِ؟ وواضحٌ أنّ الكفويّ يميّزُ جيدًا في أثناء طَرْحِهِ آراءَهُ اللغويّةِ إلّا أنّ غَلَبَةَ الجانبِ العقائديّ، وتمكّنَ فكرةِ الكلامِ النَّفسيّ منه جعلَ آراءَهُ على هذا النحو، وإلّا فحريٌّ به أن يعكسَ ما ذهبَ إليه من أنّ الكلامَ في النفسِ حقيقةٌ وفي اللسانِ مجازٌ؛ إذ الأقربُ للقبولِ أن يكونَ الكلامُ حقيقةً في اللفظِ (اللسانيّ) ومجازاً في المعنى (النَّفسيّ) فنحن إذ أطلقنا الكلامَ على ما في أنفسنا ممّا نريدُ التلفّظَ به من أوامرٍ ونواهٍ وأخبارٍ فإنّما نُطلقُ عليها ذلك؛ بسبب ما ستكونُ عليه وإلّا فهي عدمٌ بالنسبةِ للمخاطبِ ما لم تخرجْ إليه لفظاً أو إشارةً أو خطأً، فإذا خرجتْ كانتْ كلامًا حقيقةً وهي قبلَ خروجِها كلامٌ مجازاً، باعتبارِ ما ستؤولُ إليه بعد انتقالِها إلى خارجِ الذهنِ (ظهورها باللسانِ أصواتاً، أو باليدِ خطأً)، وليس العكس كما ذهبَ إليه الكفويّ .

الكلام اللفظي أو الحسي أو اللساني

لقد ظهرت هذه التسميات نتيجة ظهور تسمية (الكلام النفسي) وهذا فيه حاجة للمناقشة والنظر؛ لأننا لم نُسَلِّم بالكلام النفسي حتى نُسَلِّم بما يُقابله، فالكلام يتعلّق باللسان، ومعناه يتعلّق بالذهن، فإذا عَلِمْنَا أَنَّ الكلام لفظٌ ومعنى، فإنَّ ما في النفس هو ليس الكلام بل معناه وليس الكلام النفسي كما يعبر الكفوي عنه .

ويقول الكفوي: (الكلام مفهوم ينافي الخرس والسكوت)^(٢٠)، ويقول أيضًا: (الكلام في العرف: هو صوتٌ مقتطعٌ مفهومٌ يخرج من الفم لا تدخل فيه القراءة والتسبيح في الصلاة أو خارجها؛ لأنَّه يُسمَّى قارئًا ولا يُسمَّى متكلمًا)^(٢١)، فعلى الحقيقة والعرف يكون الكلام لدى الكفوي هو الكلام اللفظي أو اللساني ولكنَّه عندما يذكر الكلام يقسمه إلى لفظي ونفسي فيقول: (والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع وعلى مدلولها القائم بالنفس، فالخطاب إمَّا الكلام اللفظي أو الكلام النفسي)^(٢٢). وسنقف عند هذه العبارة وما يتعلّق بالخطاب في موضع آتٍ إن شاء الله تعالى. إذا كان الكفوي يرى أنَّ الكلام يكون في النفس كلامًا نفسيًا فإذا ما خرج وتلفظ به صار كلامًا لفظيًا، وأنَّه قبل ذلك كان معنويًا نفسيًا وبعدها صار حسيًا لسانيًا، وإذا كان يقول في الوقت نفسه: (التكلم: استخراج اللفظ من العدم للوجود ويُعدَّى بالباء وبنفسه، ويُشترط القصد في الكلام عند سيبويه والجمهور فلا يُسمَّى ما نطق به النائم والساقي وما تحكيه الحيوانات المُعلَّمة كلامًا)^(٢٣)، فإذا كان كلُّ ما قاله الكفوي على ما هو عليه؛ لنا أنْ نسأل: ماذا نسمي اللفظ المُستَبَقَى في النفس قبل أنْ نلتفّظ به؟ إنَّ الكلام الذي سمَّاه الكفوي (الكلام اللفظي) هو الكلام، ولا داعي لتسميته باللفظي؛ لأنَّه لا وجود لسواه يُخشى التباسه به فمقابله الذي يُسمّيه الكفوي (الكلام النفسي) ليس كلامًا بل معنى، ومن الجدير بالانتباه تفرقة أصحاب فكرة (الكلام النفسي) مع كلِّ ما تقدّم بين (العمل الحركي الذي للصوت والإدراك الذهني الذي للحرف، أي: بين ما هو ماديٌّ محسوسٌ، وبين ما هو معنويٌّ مفهومٌ . يقول الأشعري: "وقال آخرون الكلام حرفٌ والقراءة صوتٌ، والصوت عندهم غير الحرف"^(٢٤). وواضح أنَّه يقصد بالكلام الكلمات غير المطوقة، أي: الكلام النفسي الذي ينتظم بنظم عبد القاهر، ويكون في الفؤاد على حدِّ عبارة المتنبّي*، وهو أيضًا المعين الصامت بين دفتي المعجم)^(٢٥)، والإشكال الذي يُشكّل عليهم به هنا: هو أنَّهم جعلوا الكلام حروفًا ولكنَّهم لم يجعلوا النطق بتلك الحروف كلامًا، وكيف لذلك أنْ يستقيم مع

تعريف الكلام بآتته (صوتٌ مقتطعٌ مفهومٌ يخرجُ من الفم) ^(٢٦)؟ وقد خرّجوا أنفسهم من ذلك
بإيجاد (الكلام اللفظي) أو (الكلام الحسي)؛ إذ يقول الكفوي: (وذلك المعنى هو الكلام النفسي
وما يُعبّر به هو الكلام الحسي، ومغايرتهما بيّنة إذ المُعبّر به هو الكلام الحسي) ^(٢٧).

اضطراب المفاهيم

يعرّف الكفوي (الحكم): (بأنه خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين)^(٢٨)، -في اصطلاح أصحاب الأصول- على وفق ما قال، وليس التعريف الأصولي للحكم هو محل البحث هنا، بل ما يعيننا قول الكفوي بعد هذه العبارة في الخطاب: (ويقال له: الكلام النفسي ومدلول الأمر والنهي والإيجاب والتحريم)^(٢٩)، نرى أنّ الكفوي قد جمع بين مفهوم الكلام النفسي ونقيضه بتعريفه للحكم هذا، فكيف استقام له أن يعرفه بالخطاب ثم بالكلام النفسي؟ وكأنه قال: الكلام النفسي خطاباً، فكيف يكون ما في النفس خطاباً موجّه؟ ولعلّ ما أوقع في هذا الإشكال هو التأويل ولو كان الكفوي مَوْضِعاً لكان أسلم له، فلو أخذ القضية بمقتضى ظاهرها لما دخل في هذا الإشكال؛ لأنّ ما في النفس لا يمكن أن يسمعه الآخرون حتّى يكون خطاباً موجّه لآخرين؛ ولأنّ الأصل في الخطاب الإفهام؛ إذ (هو الكلام الذي يقصد به الإفهام)^(٣٠)، فلا يتحقّق ويتّفي القصد، إذا كان الخطاب هو الكلام النفسي.

وممّا يدعو إلى ترسيخ ما ذهبنا إليه تحرّر الكفوي لدى تعريفه الخطاب عن توهم دخول ما ليس من الخطاب في التعريف، فقال: (الخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو مُتَهَيِّئٌ لفهمه احترّر "باللفظ" عن الحركات والإشارات المفهّمة بالمواضعة، و "بالمُتَوَاضِعِ عليه" عن الألفاظ المُهمّلة، و "بالمقصود به الإفهام" عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع؛ فإنّه لا يُسمّى خطاباً، وبقوله: "لمن هو مُتَهَيِّئٌ لفهمه" عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم)^(٣١)، فإذا رفض الكفوي دخول الإشارات، والألفاظ المُهمّلة في اللغة، والكلام الذي لا يقصد به المتكلّم الإفهام، في تعريف الخطاب، كيف يجعل بعد ذلك كلّ الخطاب كلاماً نفسياً؟ وفي نفس الصفحة ذكر الكفوي الخلاف في تسمية كلام الله تعالى خطاباً وذلك بعد تعريف الخطاب، أهو الكلام الذي يقصد به الإفهام أم هو الكلام الذي يقصد به إفهام من هو أهلّ للفهم، وقد تجاوز الكفوي الأهمّ إلى المهمّ فحال المخاطب مهمّ ولكن الأهمّ منه المادة الخطابية التي يراود إيصالها إليه وهي (اللفظ)، أو (الكلام) ولم يعرض الكفوي هذا الأمر، لا جهلاً بقيمته وبأهميّة (اللفظ) وإنّما صرفه عن ذلك (فكرة الكلام النفسي) التي ينطلق منها ويتّخذ بها ويسير على وفقها. والمعنى القائم بالنفس وتقديم المعنى على ما سواه وكأنّ (اللفظ) لا علاقة له به ولا قيمة له في إظهاره وتصويره في ذهن المتلقي، كل ذلك يمثل أثراً من آثار فكرة الكلام النفسي في فكره وقد كان له الأثر البالغ في التوجّهات النقدية لدى كبار البلاغيين والنقاد واللغويين في التراث العربي الإسلامي .

كل أنواع الكلام ترجع إلى الخبر

من جهة المعنى

لم يُطلق الكفوي حُكمه بإرجاع كل أنواع الكلام إلى الخبر بشكل عام وإنما قيده بقوله: (من جهة المعنى)^(٣٢)، أي: أن أنواع الكلام كلها تعود إلى الخبر من جهة المعنى . ويقول الكفوي في وقوع الإسناد على الاستفهام والأمر وغيرهما: (وإن كان مرجع الجميع الخبر من جهة المعنى، ألا ترى أن معنى (فم) أطلب قيامك وكذلك الاستفهام والنهي)^(٣٣)، فهو لا يرى ما يراه الأشاعرة ويتضح ذلك بقوله: (والأشعرية على أنه تعالى تكلم بكلام واحد وهو الخبر، ويرجع الجميع إليه لينتظم له القول بالوحدة، وليس كذلك؛ إذ مدلول اللفظ ما وُضع له اللفظ لا ما يقتضي مدلوله على تقدير، وإلا لجاز اعتباره في الخبر فحينئذ يرتفع الوثوق عن الوعد والوعيد باحتمال معنى آخر غير ما يفهم)^(٣٤)، واستدل أنه هنا يقوم على أن يعكس الأمر فمن يُخبر بأمر ما يمكن أن يُقدّر كلامه على أنه أمر أو استخبار أو نهى ويحمل عليه، كإخبارك بمن يريد أن يحنث بقسم أو يمين أخذه على نفسه (إنك قد أقسمت أن تفعل كذا)، فهذا ليس إخباراً وإنما أمر في معناه وهذا كله من تبادل الصورة بين الإنشاء والخبر وهو باب واسع لا يولج هكذا، وإنما يضبط بضوابط وهو موضع النكت واللطائف اللغوية التي يُعنى بها البلاغيون من أهل المعاني، ولكن الأثر الأشعري نراه في ترجيح الكفوي لحمل الكلام على الإخبار، لكن بشرط أن تكون صورة الكلام خبرية لا إنشائية؛ إذ يردّه إلى الخبر كونه أصلاً فيه، فيقول: (والكلام خبري إذا دار بين الإنشاء والإخبار فالحمل على الإخبار أولى؛ لأن وضعه له)^(٣٥)، والفيصل في ذلك ليس أصل الوضع كما يرى الكفوي وإنما السياقات التي يرد فيها الكلام.

تعدد أقسام الكلام

يقول الكفوي: (اعلم أنَّ تعدد أقسام الكلام واختلاف أسمائه من الأمر والنهي وغير ذلك ليس هو له باعتبار تعدد في نفسه أو اختلاف صفات في ذاته ولذاته، بل هو بالنظر إلى نفسه من حيث هو كلام واحد وذلك له ليس إلا باعتبار إضافات متعددة و تعلقات مُتَكَثِّرة لا تُوجِبُ للمتعلِّق في ذاته صفةً زائدة ولا تعدُّداً)^(٣٦)، هذا الكلام مبني على أنَّ الكلام يكون في النفس حقيقة (الكلام النَّفْسِيَّ)، وأنه واحد، وما أقسامه إلا صور مختلفة متعددة لأصل واحد لا تعدد فيه وإنما التعدد والتكثُر للإضافات والتعلقات لا للأصل الذي أُضيف إليه أو تُعلّق به (فالكلام في نفسه معنى واحد، والاختلاف فيه إنما يرجع إلى التعبيرات عنه بسبب تعلّقه بالمعلومات، فإن كان المعلوم محكوماً بفعله عُبر عنه بالأمر، وإن كان بالترك عُبر عنه بالنهي، وإن كان له نسبة إلى حالة ما بأن كان وُجِدَ بعدَ العدم أو عُدِمَ بعدَ الوجود أو غير ذلك عُبر عنه بالخبر، وعلى هذا النحو يكون انقسام الكلام القائم بالنفس فهو واحد وإن كانت التعبيرات عنه مختلفة بسبب اختلاف الاعتبارات)^(٣٧)، ونقول: كيف يكون الخبر والاستخبار والأمر والنهي شيئاً واحداً ؟ وكيف يُجمع بين الأضداد المتناقضة والأشياء المختلفة ؟

إنَّ السببَ في تبنّي هذا الكلام هو اعتقاد فكرة (الكلام النَّفْسِيَّ)؛ إذ المصدر واحد (الكلام النَّفْسِيَّ) والمظهر متعدد (الكلام الحسي) -على ما يرى الكفوي- و قولنا إنَّ المعنى واحد واللفظ والتعبير به متعدد لا يُخرِجُنا من هذا الإشكال؛ لأنَّ المعنى ليس واحداً؛ فمعنى الاستخبار غير معنى الإخبار ومعنى الأمر غير معنى النهي؛ لذا فالمخرَجُ الوحيد من هذا الإشكال هو القول: بأنَّ الكلام لا يكون كلاماً حقيقةً إلا بعد استظهاره والتلفُّظ به ونطقه فإذا تكلمنا به صار كلاماً وهو متنوعٌ متعددٌ منذ ولادته ونشأته فاللفظ عند لحظة إيجاده بعد العدم (السكوت) يكون خبراً أو إنشاءً، وإن كان وجود معناه في النفس قد سبقَ ظهوره إلى المُخَاطَبِ.

نتائج البحث

- اضطربت المفاهيم بسبب البناء على أساس فكري يحتاج إلى نظرٍ مُتَجَرِّدٍ يخلو من الجزم بالصحة سلفاً؛ إذ كان انتماء الكفويّ الأشعريّ يحولُ بينه وبين ذلك، وعدّ الكلام النَّفْسِيّ خطاباً موجّهً مثلاً على ذلك الاضطراب.
- لم يتطرق الكفويّ إلى كون الكلام مفهوماً يُنافي النسيان؛ إذ توقّف عند مُنافاته للحرس والسكوت.
- فكرة الكلام النَّفْسِيّ يصعبُ عدّها من المسلمات في المفاهيم اللغوية بناءً على ما تقدّم في البحث.
- يرجع الكثير من الفضل في بحث قضايا اللفظ والمعنى إلى تلك الفكرة وإن لم يظهر التركيزُ عليها صراحةً، ومن أهمّ مظاهر ذلك تقسيم الكفويّ الكلام إلى حسيّ (لفظي) ونفسيّ (معنويّ) .
- لم نقف على جديدٍ أتى الكفويّ به، أخرجهُ عن كونه أصولياً أشعرياً مفعماً بالعلوم العقلية؛ إذ لم يبدُ في بحثه الجانب الأدبيّ الذي يُستفاد منه نقدياً كما رأينا عند أسلافه الأشاعرة أمثال عبد القاهر.

الهوامش

(١) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (١٠٩٤هـ)، تحقيق:

د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م: ٤١٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨١.

(٣) المصدر نفسه: ٧٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ٧٥٧، و ٧٥٨.

(٥) المصدر نفسه: ٨٠٠.

(٦) المصدر نفسه: ٨٤٢.

(٧) المصدر نفسه: ٩٣٦.

(*) الأشعري: هو أبو الحسن عليّ ابن إسماعيل البصريّ الأشعريّ (ت: ٣٢٤هـ) نُسِبَ يَرِجُ للصحابي أبي موسى

الأشعريّ (رض)، أحد أئمة المتكلمين تقدّم بالاعتزال، ثم رجّع عنه وجاهر بخلافه، صاحب الأصول

والتصانيف الكثيرة، إليه تُنسب طائفة الأشاعرة؛ إذ هو مؤسسها. ينظر: تاريخ بغداد: لأبي بكر أحمد بن علي

بن ثابت الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي،

بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، في (١٦) جزءاً: ٢٦٠/١٣، وينظر: وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:

لابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد البرمكي الإربيلي (ت: ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس،

دار صادر بيروت، لبنان في (٧) أجزاء: ٢٨٤/٣، والأعلام: للزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن

علي بن فارس الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٢٦٣/٤.

(٨) المصدر نفسه: ٨٤٢.

(٩) المصدر نفسه: ٨٤٢.

(١٠) ينظر: دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون): الأحمد نكري، القاضي عبد النبي بن عبد

الرسول (ت: ١٢هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية لبنان، بيروت، ط١،

١٤٢١هـ-٢٠٠٠م): ٩٥/٣.

(١١) الكليات: ٧٥٧.

(١٢) المصدر نفسه: ٤١٩.

(١٣) المصدر نفسه: ٣٨١.

(١٤) المصدر نفسه: ٧٢٠.

(١٥) المصدر نفسه: ٧٥٨.

(١٦) المصدر نفسه: ٨٦٥.

(١٧) المصدر نفسه: ٤١٩.

(١٨) المصدر نفسه: ٤١٩.

(١٩) المصدر نفسه: ٧٥٨.

(٢٠) المصدر نفسه: ٧٥٧.

(٢١) المصدر نفسه: ٧٥٧.

- (٢٢) المصدر نفسه: ٤١٩ .
- (٢٣) المصدر نفسه: ٧٥٦ .
- (٢٤) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، تحقيق: هلموت ريتز، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣: ٦٠١/١ .
- (*) لعل الدكتور تمام حسان أراد البيت المشهور الذي يحتج به الأشاعرة:
- (إنَّ الكلامَ لَفِي الفؤادِ وإنَّما جُعِلَ اللسانُ عليه دليلاً) وهو للأخطل (ت: ٩٠هـ) على خلافٍ، ولم أقفُ على أنَّه للمتنبّي (ت: ٣٥٤هـ) . ينظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد على من أنكر الحرف والصوت: لأبي نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي البكري (ت: ٤٤٤هـ)، تحقيق: محمد باكريم باعبد الله، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م: ١٢٠، وينظر: الإتيان: للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ)، تحقيق: الكوثري، نشر الخانجي، مطبعة المعمرية، مصر ط٢، ١٣٨٢هـ: ١١٠ .
- (٢٥) اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م: ٧٣ .
- (٢٦) الكليات: ٧٥٧ .
- (٢٧) المصدر نفسه: ٤١٩ .
- (٢٨) ينظر: المصدر نفسه: ٣٨١ .
- (٢٩) المصدر نفسه: ٣٨١ .
- (٣٠) المصدر نفسه: ٤١٩ .
- (٣١) المصدر نفسه: ٤١٩ .
- (٣٢) المصدر نفسه: ١٠٠ .
- (٣٣) المصدر نفسه: ١٠٠ .
- (٣٤) المصدر نفسه: ٤١٩ .
- (٣٥) المصدر نفسه: ٤١٨ .
- (٣٦) المصدر نفسه: ٩٣٨ .
- (٣٧) المصدر نفسه: ٩٣٨ .

المصادر والمراجع

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ):
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان في
(٧) أجزاء .
- الأحمد نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول (ت: ١٢هـ): (دستور العلماء جامع
العلوم في اصطلاحات الفنون)، دار الكتب العلمية لبنان، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ-
٢٠٠٠م، وقد عرّب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص .
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت: ٣٢٤هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف
المصلين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٣، تحقيق: هلمون ريتز.
• الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد (ت: ٤٠٣هـ): الإنصاف،
تحقيق: الكوثري، نشر الخانجي، مطبعة المعمرية، مصر ط ٢، ١٣٨٢هـ .
- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط ٥، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت: ٤٦٣هـ): تاريخ بغداد، تحقيق:
الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م،
في (١٦) جزءاً .
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي (ت: ١٣٩٦هـ):
الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م .
- السجزي، أبو نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي البكري (ت: ٤٤٤هـ): (رسالة
السجزي إلى أهل زبيد على من أنكر الحرف والصوت)، تحقيق: محمد باكريم باعبد الله،
الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ط ٢، ١٤٢٣هـ-
٢٠٠٢م .
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى (١٠٩٤هـ): الكليات (معجم في المصطلحات
والفروق اللغوية) تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ناشرون،
بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .